المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد الثاني والعشرون، يونيو ٢٠٢١ م

السيرة الذاتية وأشكالها المتنوعة : نشأتها وتطورها في الأدب العربي

الدكتور محمد ميزان الرحمن *

Abstract

Autobiography is an important genre of literature. It is any author's life-sketch given by himself. While writing autobiography, a writer puts down any news and event/s related to his life. This art includes his birth, his childhood, and his activities and behaviors with his parents, his family as well as all the people around him. It also discusses the contemporary social, political and cultural context in which he lives and is involved. Hence, the autobiography is very important to know the life of some prominent people, their personalities and the events with which he is in/directly related. Given this information, this research has selected the subject/topic that is based on the evolution and development of autobiography in the Arabic literature. This research tries to discover the concept of autobiography with a description of its distinctive features and the differences between it and biography. To exemplify these, this research also discusses some of the autobiographical works and their authors. Thus, it will help the writers, teachers, readers and researchers get the correct history of autobiographical works in Arabic Literature.

Keywords: Autobiography, Arabic literature, Biography, Differences between autobiography and biography, history of autobiographical works.

المقدمة

السيرة الذاتية هي فن من الفنون الأدبية. يحتوي هذا الفن على ترجمة الكتّاب عن أنفسهم. ففي السيرة الذاتية يتحدث كاتبها عن أخباره وأحداث حياته وأسرار عبقريته ومعالم عصوره. ويتحدث عن مولده وطفولته وتربيته مع والديه ومع أسرته وعلاقاته بالناس جميعا. ويتحدث أيضا عن أسرار دخيلة نفسه وأساليب تعامله وتجاربه وخبراته حتى يتين عيوبه ومحاسنه. ويتعرض للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي لازمت حياته كلها. ولهذا فن السيرة

* أستاذ، قسم العربية، جامعة داكا.
jmizandu@yahoo.com

الذاتية فن مهم لمعرفة حياة بعض الأشخاص البارزين وجلاء شخصيتهم، وللكشف عن أحداث زمنهم الذي عاشوا فيه. ولأهميتها الأدبية اهتم الأدباء والكتّاب والمؤرخون بتدوين هذا الفن وتصنيفه. ومن هنا حاولت في هذه المقالة أن أقف على تاريخ نشأتها وتطورها في الأدب العربي عبر العصور قديما وحديثا. ثم حاولت أيضا أن أقدم مفهوم السيرة الذاتية مع بيان ملامحها الخاصة وسماتها المميزة وأشكالها المتنوعة والتفريق بينها وبين السيرة الغيرية. كما وفيها تحدثت أيضا عن بعض كتب السيرة الذاتية وكاتبيها.

السيرة وأقسامها

السيرة من (س ي ر) بمعنى مشى وسلك و ذهب.

وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط "السيرة : السنة والطريقة والهيئة". (الفيروزآبادي ١٩٨٧م، ٥٢٨)

وفي الاصطلاح قال هاني العمد، "السيرة تدل على تاريخ الحياة للأفراد." (العمد ١٩٨١م، ٧٣) أطلق العرب كلمة "السيرة" أولا على حياة النبي ﷺ. ثم استخدموها للدلالة على حياة بعض الأشخاص البارزين. وهي قسمان–

أ) السيرة الغيرية (Biography)

ب) السيرة الذاتية (Autobiography)

السيرة الغيرية : السيرة الغيرية معروفة أيضا باسم السيرة غير الذاتية (Biography). وهي السيرة التي يكتبها الكاتب عن حياة الآخرين. يكتب عن حياة الأشخاص البارزين وعن أعمالهم وأخلاقهم وعن أحداث زمنهم الذي عاشوا فيه. (شرف ١٩٩٢ م، ٣–٤). يعتمد الكاتب في كتاباتها على الوثائق والشواهد.

السيرة الذاتية : وهناك نوع آخر من السيرة وهي معروفة باسم السيرة الذاتية (Autobiography) أو الترجمة الذاتية. ولها شكل خاص. ولهذا حاول اللغويون والأدباء والمؤرخون والنقاد وأصحاب النظريات أن يحددوا تعريفها المعينة. فوضعوا لها ملامح مميزة . فقيل– "وهو سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية" (وهبة و المهندس ١٩٨٤م، ٩٤) وقد عرف إبراهيم السامرائي– "إنها ترجمة الأديب الكاتب عن نفسه. فيتعرض لسيرته ابتداء من مولده ومدرجه وأين عاش وكيف شق طريقه في الحياة وما عرض له من أحداث سارة ومحزنة، وهو يمر على أسرته فيتحدث عما كان له في صباه مع والديه، ويتجاوز ذلك إلى سائر أفراد أسرته، ثم ينظر إلى علاقاته بالناس أصدقاء وأعداء، وصاحب السيرة الذاتية يفصح عن أسراره وما يكنه في دخيلة نفسه، وقد يكون في هذا ضرب من اعتراف بالحسن والسيئ، وما أحسن فيه وما اقترفه من عيوب" (السامرائي ١٤٢، ٣٣).

في السيرة الذاتية يكشف الكاتب عن نفسه ويعرض جميع جوانب حياته من تربيته ووأخلاقه وتعامله وتجاربه وخبراته وذكرياته وممارساته ومواقفه المختلفة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ويتحدث أيضا عن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاش فيها.

وهناك بعض المصطلحات مرادف لمصطلح "السيرة الذاتية". مثل- "الترجمة الذاتية" و "الترجمة الشخصية" و"التراجم الشخصية". ولكن مصطلح "السيرة الذاتية" يعد أكثر شيوعا. فأكثر الأدباء واللغويين استخدموا مصطلح "السيرة الذاتية"، أشهرهم- نبيل راغب (١٩٤٠-٢٠١٧م)، د. إحسان عباس (١٩٢٠-٢٠٠٣م)، د. عبد العزيز شرف (١٩٤٥-٢٠٠٤م)، د. أنيس المقدسي (١٨٨٥-١٩٧٧م)، علي عبده بركات. والذين استخدموا مصطلح "الترجمة الذاتية" فأشهرهم- أنور الجندي (١٩١٧-٢٠٠٢م)، د. يحيى عبد الدايم، علي أدهم (١٨٩٧-١٩٨١م)، و محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧-١٩٨٥م). وبعضهم استخدموا للتعريف عن هذا الفن "الترجمة الشخصية"، كما سمى د. شوقي ضيف (١٩١٠-٢٠٠٥م) كتابه عن حياته الذاتية باسم "الترجمة الشخصية".

تكون السيرة الذاتية عادة قصة منثورة ويكون موضوعها حياة المتكلم. ولازم في السيرة الذاتية أن يكون المؤلف متطابقا مع الراوي ويكون الراوي متطابقا مع الشخصية الأساسية ومتشبثا بالمنظور الاستعادي للقصة. ففي السيرة الذاتية شرطان مهمان: أولهما تطابق المؤلف والراوي وثانيهما تطابق الراوي والشخصية. إما أن تروى بضمير المتكلم المفرد (أنا) أو تروى بضمير المخاطب المفرد (أنت) أو بضمير الغائب المفرد (هو). في الحالة الأولى يكون التطابق مباشرة، لا يخفي فيها التطابق بين الراوي والشخصية الأساسية. يعني من يعيش الحدث هو نفسه يرويه. وأما في الحالتين الأخيرتين يكون التطابق فيهما غير مباشرة. (المبخوت ١٩٩٢م، ١٠-١٤)

أشكال السيرة الذاتية

تشكل السيرة الذاتية إلى أشكال مختلفة ومتنوعة، من أشهرها السيرة الذاتية، والاعترافات، والذكريات، والمذكرات، واليوميات واللامذكرات. (راغب ١٩٨١م، ١٢١)

وهناك فرق دقيق بين هذه الأنواع. هنا بيان مختصر عن مفهوم هذه الأنواع من السيرة الذاتية-

الاعترافات (Confessions) : هي نوع من السيرة الذاتية يتحدث فيها الكاتب عن مواقفه النفسية والعاطفية لا يعترف بها واضعو الترجمة الذاتية عادة. يضع فيها الكاتب من اعترافاته حتى يضمنها أحيانا كل شيء من عيوبه ومحاسنه. نجد في الأدب العربي الحديث هذا النوع من السيرة الذاتية. مثل اعترافات ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨م) واعترافات توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧م) واعترافات عبد الرحمن شكري (١٨٨٦-١٩٥٨م).

الذكريات (Memories): يكتب الكاتب ذكرياته بعد وقوع الأحداث بمدة من الزمن، ويعتمد فيها على ذاكرته. وهي نوع من السيرة الذاتية التي يتحدث فيها كاتبها عن البيئة والمجتمع

والمشاهدات التي عاش فيها أكثر من ذاته. وهي عرض من حالات المجتمع والشخصيات والمشاهد والأماكن أكثر من تمثيل حياة كاتبها، بل تستر كثيرا من أعماله وأفعاله. وتشير هذه السيرة إلى الأحداث التاريخية التي شهدها المؤلف وسمعها من معاصريه واشترك فيها وتأثر بها. كتب المذكرات كثير من الأدباء والعظماء ورؤساء الملوك والسياسيون حتى بلغ عددها إلى حد أصبح من العسير إحصائها. ومن أمثلة الذكريات– ذكريات السيد أبو النجا، وذكريات روز اليوسف (١٨٩٧–١٩٥٨م)، وذكريات شكري شعشاعة (١٨٩٠–١٩٦٣م) وذكريات توفيق الحكيم (١٨٩٨–١٩٨٧م).

المذكرات (Journal): المذكرات وهي التي يعرض فيها واضعها الأحداث التاريخية أكثر من واقعه الذاتي (عبد الدائم ١٩٧٤م، ٣). ففي المذكرات يركز ويهتم الكاتب على الشخصيات والأحداث من حوله، ولا يروي بالضرورة تاريخا شخصيا. نجد مذكرات محمد عبده (١٨٤٩–١٩٠٥م) وأحمد شفيق باشا (١٨٦٠–١٩٤٠م)، ومحمد كرد علي (١٨٧٦–١٩٥٣م)، ومذكرات محمد حسين هيكل (١٨٨٨–١٩٥٦م) وغيرهم.

اليوميات (Diaries): استعر العرب مصطلح "اليوميات" من مصطلح اللغة الفارسية "روزنامة". اليوميات هي من أشكال السيرة الذاتية التي يكتبها كاتبها يوما بيوم. يعرض فيها الواضع ملاحظاته والأحداث التي شاهدها بطريقة متدرجة كما شاهدها أو رواها غيره من المشاهدين. ويعرض أيضا صاحبها شخصيته والقطعات من المجتمع. (بركات ١٩٨٢م، ١٧) وهي تفتقد إلى المنظور الاستعادي في القصة. ومن أمثلة اليوميات في الأدب العربي "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم (١٨٩٨–١٩٨٧م) التي صدرت سنة ١٩٣٧م. ويعد توفيق الحكيم رائدا لفن اليوميات (الحديدي ١٩٩٦م، ١٣٦). ونجد أيضا يوميات عباس محمود العقاد (١٨٨٩–١٩٦٤م).

اللامذكرات (Antimemories): اسمها الآخر "غير المذكرات"، استخدم هذا المصطلح المفكر الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠١–١٩٧٦م) (Andre Malraux). ومثل هذا الأسلوب شائع عند كثير من الكتّاب المعاصرين، كما يقولون – اللاشعوري واللاوعي. ولكن اللامذكرات هي لون خاص من ألوان السيرة الذاتية، ليس شائعا بوصفه شكلا أو نوعا من أنواع السيرة الذاتية. (الحيدري ١٤٢٣هـ، ٨١)

يكتب المؤلف في اللامذكرات الأحداث التي شاهدها أو شارك فيها بعدم التزام بالترتيب الزمني. يريد الكاتب فيها أن يتحدث عن بعض القيم التي أثرت في حياته، دون أن يستعرض أحداث حياته ذاتها ودون قيد فني.

الدوافع إلى كتابة السيرة الذاتية

هناك أسباب كثيرة ودوافع متعددة تدفع الكاتب إلى أن يكتب سيرته الذاتية وأن يدون أحداث حياته ومواقفه المختلفة. وتختلف هذه الدوافع من كاتب إلى كاتب. بعضهم يشتركون في سبب واحد. وبعضهم يختلفون في أسباب مختلفة باختلاف الزمان والمكان. منها:

- شعور الكاتب بالظلم والاضطراب والكراهة والشقاء، فيكتب سيرته الذاتية ويعرض فيها الأحداث التي واجهها للتخفيف من واقع الحياة على نفسه وللتسرية عن نفسه وللتخليص من الآلام التي أصابته من ظلم الآخرين. يريد الكاتب أن يبين قيمته ومنزلته وأهميته في المجتمع. نجد هذه الصورة في سيرة طه حسين (١٨٨٩–١٩٧٣م) الذاتية "الأيام" التي كتبها للتنفيس عن نفسه وللتسرية عنها أمام تلك الأزمة التي واجهها في حياته.
- وهناك دافع آخر يتأثر بها كاتب السيرة الذاتية هي أن تكون سيرتها الذاتية عبرة وعظة للآخرين. كي يكون هذا نموذجا يتعلمون منه أفراد المجتمع. ويقدم فيها الأحداث والمواقف والأزمات التي تفيد الناس وتنفعهم. وهذه الصورة نجدها في سيرة أحمد أمين (١٨٨٦–١٩٥٤م) "حياتي". ففي هذه السيرة بين كيف كان المؤلف في حداثته وكيف نشأ وتطور وبلغ من التقدم في حياته وكيف خدم الأمة العربية. وذكر الكاتب هذه كلها ليقوم به كل إنسان.
- والدافع الثالث الذي يدفع الكاتب إلى كتابة السيرة الذاتية هو حرص الكاتب على ألا تضيع من حياته حادثة أو موقف له دلالته في حياته (الحديدي ١٩٩٦م، ١٥٢). وهو يريد أن يقف القراء والدارسون والباحثون من بعده على أحداث حياته. هذا الدافع أكثر في ميدان كتابة السيرة الذاتية. ومن أنموذج هذا النوع من السيرة الذاتية هي سيرة شعرية للشاعر السعودي الدكتور غازي القصيبي (١٩٤٠–٢٠١٠م). وهو كتب هذه السيرة الشعرية حفاظا على معالم حياته. وقدم في بدايتها الدعوة العامة للأدباء والشعراء أن يترجموا لحياتهم.
- بيان أثر مجتمع الكاتب وبيئته في حياته وفي أدبه وهو سبب آخر لكتابة السيرة الذاتية. ويحرص الكاتب أيضا على بيان أثره هو وأثر أدبه في مجتمعه وبيئته. الكاتب هنا يذكر تأثره وتأثيره معا. يذكره من خلال تركيزه على جوانب معينة في حياته. ونجد هذه الصورة في سير بعض الساسة ورجال الحرب والأدباء الذين يريدون عرض تجاربهم. ومن أمثلة هذه السير سيرة أسامة بن منقذ (١٠٩٥–١١٨٨م) "الاعتبار". فقد بين فيه أثره وأثر أدبه في أحداث عصره وبيئته وأثر مجتمعه و بيئته في أدبه وحياته.

- الحرص على عرض حياته العلمية هو أيضا دافع مهم لكتابة السيرة الذاتية. فيريد الكاتب أن يبين ما ألف من المصنفات العلمية وما ترك من أفكار ومعلومات. ونجد صورة هذه السيرة في تراجم الفلاسفة والعلماء القدماء. أرادوا أن يتحدثوا فيها عن حياتهم العلمية والفلسفية. ومثال هذه السيرة سيرة ابن الهيثم (٩٦٥–١٠٤٠م) وسيرة ابن سينا (٩٨٠–١٠٣٧م) وسيرة ابن أبي أصيبعة (١٢٠٣–١٢٦٩م) وابن الجوزي (١١١٦–١٢٠٣م) وأبي شامة المقدسي الدمشقي (١٢٠٣–١٢٦٧م).
- والدافع الكبير الذي دفع الكتّاب إلى كتابة السيرة الذاتية هو أثر السيرة الذاتية الغربية الحديثة. أخذ العرب مناهجها الحديثة وطرقها الشائعة من الأدب الغربي الحديث حتى تحدثوا فيها عن جميع جوانب الحياة بعيوبها ومحاسنها. وكان طه حسين من الذين سلكوا طريقة الغربيين في كتابة السيرة الذاتية. فعرض في سيرته صورة كاملة عن جميع أطراف حياته.
- وهناك سبب آخر لكتابة السيرة الذاتية هو العاطفة الحقيقية التي يواجهها الكتّاب في حياتهم. التجارب العاطفية الحقيقية تدفع الأدباء إلى كتابة قصص حبية صادقة ذاتية. كما كتب إبراهيم المازني (١٨٨٩–١٩٤٩م) قصة حياته "إبراهيم الكاتب"، وكتب العقاد (١٨٨٩–١٩٦٤م) "سارة" وكتب توفيق الحكيم (١٨٩٨–١٩٨٧م) "عصفور من الشرق" وكتب محمود تيمور (١٨٩٤–١٩٧٣م) "نداء المجهول".

وبالإضافة إلى هذه الدوافع هناك أسباب ودوافع كثيرة تظل خفية في نفس الكاتب. لا نستطيع أن نطلع عليها. كل هذه الأسباب والدوافع يدفع الكتّاب والأدباء إلى كتابة سيرهم الذاتية. يكون كاتب السيرة شخصا نافعا ومثالا للآخرين. ويكون ذا قيمة اجتماعية وعلمية وفكرية. وهو قادر على صياغة سيرته بالأسلوب الفني. مع هذه يكون صاحب السيرة في بيان أحداثه ومواقفه صادقا وأمينا وعادلا. و تكون سيرتها مفيدة تتوافر فيها الدروس والعبر للقراء.

نشأة السيرة الذاتية وتطورها في الأدب الغربي

السيرة الذاتية هي فن مستقل ومشهور في الفنون الأدبية. وقد اختلف مؤرخو هذا الفن في تعيين زمن نشأتها. فقال بعض المؤرخين والباحثين أنها من الفنون الأدبية القديمة. وهذا قولهم باعتبار مفهومهم عن السيرة الذاتية. فرأيهم بأن كل كتابة نثرية يتحدث فيها كاتبها عن ذاته وهي السيرة الذاتية. (شاكر ٢٠٠٢م، ٢٧)

وبعضهم عدوها من الفنون الأدبية الحديثة. فقال أن للسيرة الذاتية بناء خاص ولها ملامح خاصة. ولم تظهر هذه الملامح والبناء إلا في نهاية القرن الثامن عشر.

الباحثون الذين يرون من الذين يرون بأن السيرة الذاتية من الفنون الأدبية الحديثة أشهرهم ديورانت (William James Durant) (١٨٨٥–١٩٨١م)، وهو يرى بأن السيرة الذاتية وليدة الحضارة المصرية القديمة. فمن مبرراته أن هناك برديات من الأدب المصري القديم، يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق. م. يحتوي بعض منها على قطع من السير الذاتية. ومنها قصة ملاح تحطمت سفينته في عرض البحر، فهي قطعة من ترجمة ذاتية تفيض حياة وشعورا. (وايريل ١٩٨٨م، ١١١)

هكذا يرى د. شوقي ضيف (١٩١٠–٢٠٠٥م) بأن السيرة الذاتية نشأت في مصر، فقال– "واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم، وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم، وأفعالهم، وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم." (ضيف ١٩٨٧م، ٧)

وقال ماهر حسن فهمي– "السيرة الذاتية كانت جذورها الأولى متشعبة في الحضارات القديمة، كالمصرية والبابلية والهلينية وغيرها." (فهمي ١٩٨٣م، ٢٢٥)

من الذين يرون السيرة الذاتية من الفنون الأدبية الحديثة-

بعض الباحثين يرون بأن السيرة الذاتية من الفنون الأدبية الحديثة، أشهرهم جورج ماي (George O. May) (١٩٦١–١٨٧٥م)، فيرى شكري مبخوت لأن هذا الجنس الأدبي حديث نسبيا بل لعله أحدث الأجناس الأدبية. وأن اعترافات جان جاك روسو (١٧١٢–١٧٧٨م) هي تعد نموذجا للسيرة الذاتية التي كتبها في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.(مبخوت ١٩٩٢م، ١٠)

وقيل أن اعترافات القديس أوغسطين (St. Augustine) (٣٥٤–٤٣٠م) هي التي شكلت الإرهاصات الأولى في نشأة ثلاثة من أشكال السيرة الذاتية، وهي الأشكال التاريخية والفلسفية والشعرية (شاكر ٢٠٠٢م، ٢٩).

كتبها أوغسطين قبل جان جاك روسو. باعتبار هذا الرأي هي تستحق لقب أقدم سيرة ذاتية. هنا نستطيع أن نقول نشأت إرهاصات السيرة الذاتية باعترافات أوغسطين، ولكن بدأ قبول هذا الفن الأدبي بمصطلحه الخاص بعد اعترافات روسو.

وبعض الباحثين أخرجوا اعترافات أوغسطين وروسو من باب السيرة الذاتية. فقالوا يريد كاتب الاعترافات أن يبين أخطائه وذنوبه، وأما كاتب السيرة الذاتية يريد أن يتحدث عن جميع جوانب حياته. ولها شكل خاص معاصر.

وقال سامية أسعد أن " كلمة سيرة ذاتية صيغت أولا في شكلها الانجليزي (Autobiography) في مستهل القرن التاسع عشر ثم انتشرت في معظم اللغات الأوربية. ويمكن الحديث بعبارة أدق عن الوعي الجماعي بهذه الظاهرة عام ١٨٠٠م تقريبا". (أسعد ١٤٠٣هـ، ٧٤) وقيل أن مصطلح

السيرة الذاتية ظهر في سنة ١٨٠٩م (بركات ١٩٨٢م، ١٧). وقال د. يحيى عبد الدايم– ظهر مصطلح "السيرة الذاتية" في القرن السابع عشر، وتطور تطورا ملحوظا في القرن السامن عشر. (عبد الدائم ١٩٧٤م، ٢٣)

وقيل بدأت السيرة الذاتية في القرن الخامس عشر على يد مارغري كامب (Margery Kempe) (١٣٧٣–١٤٣٨م). وظهر مصطلحها في نهاية القرن الثامن عشر.

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

اختلف الباحثون في تحديد زمن نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي. فبعضهم قالوا إن إرهاصات السيرة الذاتية نشأت في الأدب العربي في العصر القديم قبل نشأتها في الأدب الغربي، ولكنها تطورت تطورا ملحوظا في العصر الحديث. كما قال محمد عبد الغني حسن– "وظل أوروبا عقيما في كتابة التراجم منذ عصور الظلام، التي خيمت عليها في القرون الوسطى، على حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالي العصور تكثر أنواعها ويتضخم عددها (حسن ١٩٨٠م، ١١)".

ونجد وجود أصول السيرة الذاتية في كثير من قصائد الشعراء الجاهليين. بيّن الشاعر فيها مشاعره وفخره ومجده وأمجاد قبيلته وانتصارها، ومدح نفسه وشخصيته حسبا ونسبا. وهذه كلها من بذور السيرة الذاتية الشعرية. وأما من بذور السيرة الذاتية النثرية التي ظهرت أول مرة في الأدب العربي هي رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه (٦٥٦م) عن نفسه. وهو ذكر في هذه القطعة نسبه وحب والده له وخوفه عليه. وذكر قصة تركه للدين المجوسي، ثم النصراني. ثم تحدث عن صفات النبي الجديد محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر عنه الأسقف النصراني. وبين فيها أيضا قصة رحلته إلى الدين الحق وقصة تحمله من مشقات شديدة في سبيل الوصول إلى هذا الدين. تعتبر هذه القطعة أول بذرة السيرة الذاتية التي رواها في القرن الأول للهجرة (شاكر ٢٠٠٢م، ٣٩).

بعد ذلك توجد بعض قطع من السيرة الذاتية في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. منها السيرة الذاتية للشاعر نصيب (ت ٧٩١م) الذي شهد العصر العباسي والعصر الأموي. تحدث نصيب فيها عن عبقريته الشعرية. ثم نجد في كتاب الأغاني مجموعة من قطع السيرة الذاتية الفنية لإبراهيم الموصيلي (٧٤٢–٨٠٤م) ولابنه إسحاق بن إبراهيم الموصلي (٧٦٧–٨٥٠م). ذكر فيها إبراهيم مواقف نفسه أمام الخلفاء العباسيين (الأصفهاني د.ت، ١٦٢).

واشتمل الكتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لأبي العباس ابن أبي أصيبعة (١٢٠٣–١٢٧٠م) بعض قطع من السير الذاتية. منها السيرة الذاتية لحنين بن إسحاق (٨١٠–٨٧٣م)

والسيرة الذاتية للحسن بن الهيثم (٩٦٥–١٠٤٠م)، وابن سينا (٩٨٠–١٠٣٧م)، وعلي بن رضوان (٩٨٨–١٠٦١م)، وعبد اللطيف البغدادي (١١٦١–١٢٣١م).

ونجد بعض قطع من السير الذاتية في كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي (١١٧٨–١٢٢٩م). من أمثلتها السيرة الذاتية لعلي بن زيد البيهقي (١٠٩٩–١١٦٩م).

فهذه كلها من بذور السيرة الذاتية التي نجدها في الأدب العربي قبل الغرب. بل يوجد هناك بعض الرسائل والكتب الخاصة في الأدب العربي القديم التي تحدث فيها مؤلفوها عن سيرتهم الذاتية. فمن هذه الرسائل رسالة محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤–٩٢٣م) ورسالة "الصداقة والصديق" لأبي حيان التوحيدي (٩٢٢–١٠٢٣م) ورسالة "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد" لابن الجوزي (١١١٦–١٢٠١م). ومن الكتب التي اشتملت السيرة الذاتية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف" لابن حزم الأندلسي (٩٩٤–١٠٦٤م)، وكتاب المؤيد في الدين داعي الدعاة لمحمد كامل حسين (١٠٠٠–١٠٧٧م)، وكانت سيرته سيرة ذاتية سياسية. ومن السير السياسية الفنية سيرة الأمير عبد الله بلقين اسمها "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة". ثم نجد من السير الذاتية الصوفية كتاب "المنقذ من الضلال" للغزالي (١٠٥٨–١١١١م)، وكتاب محيي الدين ابن عربي (١١٦٤–١٢٤٠م)، وكتاب عمارة اليمني (١١٢١–١١٧٤م) "النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية".

وبعد ذلك كتب السيرة الذاتية أسامة بن منقذ "الاعتبار" الذي تحدث فيه عن نشأته واختباراته الحربية وشجاعته في محاربة الإنان والحيوان. (عباس د.ت ،١٣٨)

ثم نجد في الأدب العربي القديم سيرة ذاتية أكثر مشهورا من السير الذاتية السابقة، وهي سيرة ابن خلدون (١٣٣٢–١٤٠٦م) المشهورة باسم "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا". هي من أهم نماذج السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم التي تعتبر أصولا للسيرة الذاتية الحديثة. تحدث ابن خلدون فيها عن أسرته التي ولد فيها. ثم تحدث عن حياته وعن إقامته في الأماكن المختلفة. ونجد في هذا الكتاب دوافع ذاتية. وعرض فيها ابن خلدون شهرته العريضة ومنزلته الرفيعة في حياته السياسية والاجتماعية.

ثم كتب أبو شامة المقدسي (١٢٠٣–١٢٦٧م) كتاب التراجم الذاتية باسم "تراجم رجال القرنين السادس والسابع". يعتبر هذا الكتاب شكلا جديدا من أشكال السيرة الذاتية الذي تحدث فيه الكاتب عن مولده ونشأته وحياته العلمية ضمن أحداث زمنه. ففي هذا الشكل من أشكال السيرة الذاتية يعرض الكتّاب سيرتهم في كتبهم التاريخية. كما كتب محمد بن محمد الجزري (١٣٥٠–١٤٢٩م) سيرته في كتابه التاريخي "طبقات القراء"، وكتب محمد بن عبد الرحمن السخاوي (١٤٢٨–١٤٩٧م) ترجمته في كتابه "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع". وقدم

لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣–١٣٧٤م) سيرته في آخر جزء من كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة". في هذا الكتاب تحدث الخطيب عن نشأته و ومشايخه وكتبه وأشعاره.

أشكال السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

فهذه هي السير الذاتية نجدها في الأدب العربي القديم التي بلغت من الكثرة في التراث العربي القديم حدا لم تبلغه في أي تراث لأمة أخرى. (حسن ١٩٨٠م ، ١١) ولكن هذه لم تتخذ مصطلحا خاصا بها ولم تستقل الكتابات الذاتية بكتب خاصة بها في الأدب العربي القديم. بل كانت لهذه السير الذاتية مميزات خاصة. فكثرت أشكالها وأنواعها. مثلا–

سير الفلاسفة والعلماء: بعض السير تحدثت عن الحياة العلمية والفلسفية بدون اهتمام إلى النشأة والحياة الاجتماعية، وهي سير الفلاسفة والعلماء.

سير المتصوفة: بعضها تحدثت عن التجارب الروحية ولم تهتم الحياة العامة، وهي سير المتصوفة.

سير الساسة: وهناك سير الساسة التي تحدثت عن تجاربهم السياسية والحربية.

سيرة الشهادة: ونجد أيضا سيرة الشهادة التي وضع كاتبها ليسجل ما شاهد من أحداث.

السيرة التربوية: وهناك سيرة ذاتية تسمى السيرة التربوية. وهي سيرة كتبها صاحبها بعد الحصول على تجارب روحية وفكرية حتى اعتقد بها، ثم تحدث عنها لنصح الناس.

سير المغامرات: هي السير الذاتية التي وضعت لوصف مغامرات ومشاهدات عجيبة مثيرة. (المبخوت ١٩٩٢م، ٢٥)

ولا نجد في الأدب العربي القديم سيرة ذاتية متكاملة مفصلة ومستقلة تتحدث عن جميع جوانب حياة الكاتب. ولا نجد أيضا فيها جميع الخصائص التي نجدها في السيرة الذاتية الحديثة. فنحن نستطيع أن نقول بأننا ما وجدنا في الأدب العربي القديم بل في أي أدب عالمي قديم هي تعتبر بذورا وأصولا للسيرة الذاتية لا سيرا ذاتية بمفهومها الحديث ولا نموذجا تاما لها.

السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

في العصر المملوكي توقف نمو السيرة الذاتية في الأدب العربي. ولا نجد شيئا جديدا لهذا الفن في هذا العصر. وبدأت بذور السيرة الذاتية في الأدب الغربي في القرن الخامس عشر الميلادي على يد مارغري كامب Margery Kempe (١٣٧٣–١٤٣٨م)، ثم انتشرت وتطورت حتى وصلت إلى شكله الحديث. وفي القرن التاسع عشر بعد انتقال فن السيرة الذاتية الحديثة من الحضارة الغربية إلى الحضارة العربية بدأ ظهور هذا الفن في الأدب العربي الحديث متأثرا بالتراث العربي القديم وبالتراث الغربي الحديث.

في الأدب العربي الحديث بدأت ارهاصات فن السيرة بكتاب "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والودان" لمحمد بن عمر التونسي (١٧٨٩–١٨٥٧م). كتب هذا الكتاب في سنة ١٨٣٢م، وقدم سيرته إيجازا في مقدمته. تحدث فيه عن تعلمه ووظائفه وعن رحلته إلى دافور بالسودان.

ثم نجد سيرة أحمد فارس الشدياق (١٨٠١–١٨٨٧م) بعنوان "الساق على الساق فيما هو الفارياق". يرى بعض الباحثين أنه أول سيرة ذاتية في العصر الحديث مع افتقار بعض الخصائص الفنية للسيرة الذاتية.(عباس د.ت، ١٤١) ذكر فيه الكاتب أخباره، وأخبار عائلته وأحداث مولده، وآرائه وشخصيته. ويرى بعض الباحثين بأن كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣م) هو أول ارهاصة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (شاكر ٢٠٠٢م، ٧٠). ثم كتب علي مبارك (١٨٢٣–١٨٩٣م) سيرته سنة ١٨٨٩م ضمن كتابه "الخطط التوفيقية". تحدث فيه عن مولده وعائلته وتعلمه في البلدان المختلفة وعن وظائفه.

وفي القرن العشرين شهد العرب أحداثا واضطرابات وأطماعا استعمارية التي ساعدت الأدباء على تنمية شعورهم بالذات وحثتهم على كتابة السيرة الذاتية. فنجد في القرن العشرين كثيرا من الأدباء الذين كتبوا سيرتهم الذاتية. منهم محمد كرد علي (١٨٧٦–١٩٥٣م) الذي كتب ترجمة حياته في الجزء السادس من كتابه "خطط الشام".

ثم كتب طه حسين (١٨٨٩–١٩٧٣م) كتابه "الأيام" في عام ١٩٢٩م الذي يعد أول سيرة ذاتية فنية في الأدب العربي الحديث (شاكر ٢٠٠٢م، ٧٥). تحدث طه حسين في سيرته عن مولوده وطفولته وصباه وبيئاته التي عاشها وعن الحرمان والظلم التي واجها في حياته. وتحدث عن حياته العلمية وأساتذته وشيوخه في داخل البلاد وخارجها، وعن حياته الزوجية وعن الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية في مصر المعاصر. كتب طه حسين سيرته هذه بالأسلوب القصصي الروائي باستخدام ضمير الغائب. هذا الضمير ساعده على التزام الصدق والصراحة في بيان أحداث حياته وزمنه.

وتأثر كثير من الأدباء والكتاب بكتاب "الأيام" لطه حسين. فكتب أحمد أمين (١٨٨٦–١٩٥٤م) سيرته الذاتية "حياتي" متأثرا بما ذكر طه حسين في كتابه "الأيام". فتحدث عن دراسته في الكتاب والأزهر وعن متاعبه التي واجهها في حياته. وتحدث عن عمله مدرسا في الجامعة، كأنه قارن نفسه بطه حسين. ويرى أن شخصيته هي وليدة الأحداث التي عاشها. ولكنه صور ما راى وشاهد من الحقيقة بالأسلوب التقريري الإخباري عكس طه حسين في كتابه "الأيام".

ثم نجد في الأدب العربي الحديث كتابين لعباس محمود العقاد (١٨٨٩–١٩٦٤) "أنا" و "حياة القلم". كتبهما العقاد عن سيرته الذاتية. واختلف في أسلوبهما اختلافا تاما عن أسلوب طه حسين وأحمد أمين. وقدم سيرتيه بالأسلوب التحليلي والتفسيري، كأن سيرته هذه هي جمع

المقالات العلمية البحثية. في كتاب "أنا" تحدث العقاد عن شخصيته وإنسانيته. وفي كتاب "حياة القلم" تحدث عن حياته الأدبية والسياسية والصحفية والاجتماعية. وعرض أيضا الأحداث والتجارب والخبرات التي عاش فيها.

ومن الذين اتبعوا طه حسين واستعانوا بالشكل الروائي في كتابة السيرة الذاتية الكاتب محمد شكري (١٩٣٥–٢٠٠٣م)، وهو استعان بأسلوب طه حسين في بناء كتابه "الخبز الحافي". تحدث فيه عن رحلته من الريف إلى طنجة لكسب المال وعن ألمه لظلم أبيه عليه وعلى أمه وعلى أخيه. ثم استعان بالشكل الروائي جبرا إبراهيم جبرا (١٩٢٠–١٩٩٤م) في كتابة سيرته الذاتية "البئر الأولى" التي نشرت سنة ١٩٨٧م. ثم استعان بالشكل الروائي في بناء السيرة الكاتب المشهور نجيب محفوظ (١٩١١–٢٠٠٦م). نشر كتابه "أصداء السيرة الذاتية" عام ١٩٩٤م. ونجد أيضا سيرة روائية لفيصل الحوراني (ولد عام ١٩٣٩م) التي نشرت سنة ١٩٩٦م. تحدث الحوراني في الجزء الأول من سيرته عن هجرة أبناء القرى الفلسطينية إلى الدول المجاورة وعن أحداث رحلاتهم وعن إحساسه لها وعن الأماكن التي زارها في فلسطين. وفي الجزء الثاني تحدث عن رحلته مع أسرته إلى دمشق. ثم كتب باستخدام هذا القالب محمد القيسي (١٩٤٥–٢٠٠٣م) سيرته "كتاب الابن".

ومن الذين سلكوا طريقة أحمد أمين واستعانوا بالشكل التقريري والإخباري في بناء السيرة الذاتية الكاتب سلامة موسى (١٨٨٧–١٩٥٧م)، سيرته "تربية سلامة موسى". وهو سلك طريقة إخبارية في ترجمته الذاتية. واستعان المؤرخ الفلسطيني هشام شرابي (١٩٢٧–٢٠٠٥م) أيضا بالقالب التقريري والإخباري في بناء سيرته "الجمر والرماد" التي نشرت عام ١٩٧٨م. وهو حاول أن يكتب السيرة الذاتية مرة ثانية، فكتب كتابه "صور الماضي" الذي نشر سنة ١٩٩٣م.

ومن الذين استعانوا بالشكل التحليلي التفسيري وسلكوا طريقة عباس محمود العقاد في بناء السيرة الذاتية االكاتب المشهور لطفي السيد (١٨٧٢–١٩٦٣م). سيرته "قصة حياتي" التي تحدث فيها الكاتب عن جميع جوانب حياته وعن تأثره بالفلسفة الإسلامية والأوروبية. ثم سلك الطريقة التحليلية خيري منصور (١٩٤٥–٢٠١٨م) في بناء كتابه "صبي الأسرار".

وبعض الأدباء اتخذوا أسلوبا متوسطا بين الأسلوب التحليلي والأسلوب الروائي. منهم ميخائيل نعيمة (١٨٨٩–١٩٨٨م) الذي كتب سيرته باسم "سبعون". واعتد في بنائه على أسلوب المقالة والرواية معا.

ومن الذين اشتهروا بكتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان (١٩١٧–٢٠٠٣م). كتبت كتابين لسيرتها الذاتية. أولهما "رحلة جبلية رحلة صعبة" الذي نشر سنة ١٩٨٦م. هذه سيرة عن رحلتها والمجتمع النسوي مع السجن، والسجان. وثانيهما "الرحلة الأصعب" الذي نشر عام ١٩٩٣م. وهي سيرة التي تحدثت فيها عن رحلة

نفسها وشعبها مع الاحتلال الصيهوني. وهي رحلة الموت والمشقات من أجل الاستقلال والحرية.

أشكال السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

فمن سيرة طه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد نحن نجد ثلاثة أشكال للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث. وهي–

١. **الشكل القصصي والروائي:** استعان به طه حسين وبعض الأدباء. في هذا الشكل يقدم المؤلف صورته الداخلية والخارجية بالأسوب الفني. هذا الشكل يجذب القارىء أكثر من الأشكال الأخرى. لهذا أصبح هذا الأسلوب أكثر شيوعا في النصف الثاني من القرن العشرين.

٢. **الشكل التقريري والإخباري:** استعان به أحمد أمين وبعض الأدباء. وهو صياغة السيرة الذاتية صياغة أدبية ولكن أقل متعة من الشكل الروائي. قد تكون فيه عناصر من الأسلوب التحليلي الذي سلكه العقاد. هذا الشكل أكثر سهولة على الكاتب. وهو قريب من التاريخ.

٣. **الشكل التحليلي والتفسيري:** رائده عباس محمود العقاد. واستعان بهذا القالب أيضا بعض كتّاب المقالات الصحفية في كتابة سيرهم الذاتية. وهو أسلوب المقالة. يتحدث فيه الكاتب عن مراحل حياته المختلفة وعن شخصيته في طفولته، وصباه، و شبابه، وعن عقله وأفكاره المختلفة.

هذه هي الأشكال الشائعة المستخدمة في بناء السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.

الخاتمة

السيرة الذاتية فن من الفنون الأدبية، يكتب فيه الكاتب عن حياته ونشأته وأفكاره، بدأ بذور السيرة الذاتية وإرهاصاتها في الأدب العربي من قديم الزمن. وتطور هذا الفن تطورا ملحوظا في العصر الحديث متأثرا بالآداب الغربية وبالتراث العربي معا. والذين كتبوا السيرة الذاتية أكثرهم تحدثوا في سيرهم عن حياة أنفسهم وشخصياتهم وعن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعلمية والسياسية التي عاشوها. وسلكوا في بناء هذه السير طرقا مختلفة. فبعضهم استعانوا بالأسلوب القصصي والروائي، حينما بعضهم اتخذوا طريقة التقريري والإخباري، وبعضهم استعانوا بالأسلوب التحليلي والتفسيري.

المصادر والمراجع

١. الفيروز آبادي. ١٩٨٧م. *القاموس المحيط*. بيروت : مؤسسة الرسالة.

٢. أسعد، د. سامية أحمد. ١٤٠٣هـ. "أدب السيرة الذاتية" *مجلة الفيصل*. ع ٦٧ . محرم، ٧٤

٣. الأصفهاني، أبو الفرج. ٢٠٠٥. *كتاب الأغاني*. دار ومكتبة الهلال.

٤. الحديدي، عبد اللطيف محمد. ١٩٩٦م. *فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي*. دار المعارف.

٥. الحيدري، د. عبد الله بن عبد الرحمن. ١٤٢٣هـ. *السيرة الذاتية في الأدب السعودي*. الرياض: دار طويق للنشر والتوزيع.

٦. السامرائي، إبراهيم. د.ت."فن السيرة الذاتية عرفه العرب قبل غيرهم". *مجلة الفيصل*، عدد ١٤٢ : ٣٣.

٧. العمد، هاني. ١٩٨١م. *دراسات في كتب التراجم والسير*. عمان: المؤسسة الصحفية الأردنية.

٨. المبخوت، شكري. ١٩٩٢م. سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين. تونس: دار الجنوب للنشر.

٩. بركات، علي عبده. ١٩٨٢م. *اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية*. جدة : مطبوعات تهامة.

١٠. حسن، محمد عبد الغني. ١٩٨٠م. *التراجم والسير*. القاهرة : دار المعارف.

١١. راغب، نبيل. ١٩٨١م. *دليل الناقد الأدبي* . القاهرة : دار غريب للطباعة.

١٢. شاكر، تهاني عبد الفتاح. ٢٠٠٢م . *السيرة الذاتية في الأدب العربي*. بيروت : المؤسسة العربية للذراسات والنشر.

١٣. شرف، عبد العزيز. ١٩٩٢ . *أدب السيرة الداتية*. القاهرة : الشركة المصرية العالمية للنشر.

١٤. ضيف، شوقي. ١٩٨٧م. *الترجمة الشخصية*. القاهرة : دار المعارف

١٥. عباس، د. إحسان. د.ت. *فن السيرة*. بيروت : دار الثقافة.

١٦. عبد الدائم، يحيى. ١٩٧٤م. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. بيروت : دار النهضة العربية.

١٧. فهمي، ماهر حسن. ١٩٨٣م. *السيرة تاريخ وفن*. الكويت : دار القلم.

١٨. وايريل، ول . ١٩٨٨م. *قصة الحضارة*، ترجمة زكي نجيب محمود. بيروت : دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

١٩. وهبة، مجدي. المهندس، وكامل. ١٩٨٤م. *معجم المصطلحات العربيةفي اللغة والأدب*. لبنان : مكتبة لبنان.